السخرية السياسية والدينية في عهد المرابطين حتى نهاية بني الأحمر

((دراسة تحليلية))

م.م. حمود ناصر حسون

أ.د. علي مطشر نعيمة

جامعة البصرة – كلية التربية للعلوم الإنسانية - قسم اللغة العربية

ملخص البحث:

يهدف البحث إلى تقديم دراسة عن النثر الساخر في عهد المرابطين حتى نهاية بني الأحمر بغية تأكيد خصائص المضمون بما يعطي صورة أكثر وضوحا ودقة لطبيعة النثر الساخر خلال هذه المراحل الأدبية، من حيث صورة للتعبير عن طبيعة الشخصية الأندلسية وقدرتها على رفض الواقع والاحتجاج على الظلم بهذا الاتجاه التعبيري الساخر. من خلال التحليل الأدبي الموضوعي للنصوص النثرية لهذه الظاهرة الأدبية، ووظفت السخرية بوصفها سلاحاً رادعاً لأي خروج عن المألوف في وجه الممارسات السياسية والدينية الخاطئة.

الكلمات المفتاحية : النثر الأندلسي ، السخرية ، المرابطين ، الموحدون ، بني الأحمر .

Political and religious irony in the era of Almoravids' Almohads and Bani Al-Ahmar

Asst. Lect. Hamood Nasser Hasoon
Prof. Dr. Ali Metasher Nua'ima
Dept. of Arabic ,College of Education for Human Sciences, University of Basrah

Abstract:

The research aims to present a study of satirical prose during the era of Almoravids until the end of Bani al-Ahmar in order to confirm the characteristics of the content to give a clearer and more accurate picture of the nature of satirical prose during these literary stages in terms of its being a picture of an expression of the nature of the Andalusian character and its ability to reject reality and protest injustice through this satirical expressionist trend. In terms of objective literary analysis of many prose texts representing this literary phenomenon and sarcasm was used as a deterrent weapon for any departure from the norm in the face of wrong political and religious practices.

Key words: Andalusian Prose, Sarcasm, Almoravids, Almohads , Bani al-Ahmar

مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية العدد ٣ - المجلد ٤٦ - تموز لسنة ٢٠٢١

مقدمة:

يتناول هذا البحث السخرية السياسية والدينية في النثر الأندلسي واخترت الفترة الزمنية من عهد المرابطين حتى نهاية بني الأحمر؛ لتكون مجالا للبحث، وذلك لافتقار الدراسات الأكاديمية التي تناولت هذا الجانب، وأهمية هذه الفترة الزمنية وتنوعها، جاء البحث في مقدمة، فتمهيد، ومبحثين، الأول السخرية السياسية، والثاني السخرية الدينية. فخاتمة، ثم الهوامش والمصادر والمراجع.

مدخل:

لا تخلو المجتمعات من العيوب والتناقضات، التي تهدد ترابط المجتمعات، وقد تختلف درجات تأثيرها وتماسكها من ناحية الخطورة التي ذلك المجتمع.

يتفق الناس على ازدراء هذه العيوب الاجتماعية من خلال التوافق المجتمعي على ذلك، ولعل كثيراً من العيوب التي تظهر في المجتمعات، لا يمكن معاقبة صاحبها قانونياً أو تجريمه، وهنا يلجأ المجتمع إلى معاقبته أدبياً إن صح التعبير.

إن الأدباء هم أكثر الناس إدراكاً للعيوب؛ لما يملكونه من حسٍ مرهف وملاحظة حادة، وكونهم حريصين على التصدي لها ومعالجتها، فإذا كان الضحك ظاهرة إنسانية فهو أيضاً ظاهرة اجتماعية، ولا بد من وجود الآخر **((ما كنّا لنضحك، لو أننا كنّا نعيش فرادى، فهذا الآخر نسخر منه أو نهزأ به أو قد نشترك معه في السخرية أو نقلده في الضحكة أو نتبادل معه النكتة))**[١]، هذا ما قصده (برجسون) عندما وضح لنا أن الإنسان ليس بمقدرته أن يتذوق أو يشعر بالضحك في حالة شعوره بالعزلة، فالضحك في حاجة إلى صدى، غير أنّ هذه الظاهرة تدور في دائرة مغلقة.

فضحكنا هو أبداً ضحك جماعة معينة من الناس، أو ضحك طائفة معدودة من الأفراد، لتكون الفكرة المقصودة، وفي إشارة (برجسون) للضحك أنّه ظاهرة لا تخرج عن كونها استجابة لبعض مطالب الحياة الحجمية، بمعنى أنه لا بد من أن تكون للضحك دلالته الاجتماعية[٢].

وقد يفقد الفرد سبل توافقه وتكيفه مع الظروف الاجتماعية، فإنه يتربع في بؤرة السخرية، وليس للضحك سوى حكمنا على الفرد بالجمود والآلية وفقدان الروح الجماعية، والواقع أن الخاصية الرئيسة التي تميز المضحك، إنما هي انعدام التوافق بينه وبين المجتمع، بحيث قد يكون في وسعنا أن نقرر أنّ (الملهاة) إنما هي أولاً وبالذات تصوير للعيوب الاجتماعية ووصف للنماذج البشرية التي تنحرف عن المعايير الجمعية، وفي أغلب الأحيان تعتمد السخرية على السلوك الظاهر من الإنسان أو ما يكمن من تناقضات داخلية لدى الإنسانية تطفو فوق السطح في صورة أعمال شاذة، وأيضاً تعتمد على صور البناء الاجتماعي التي انقضى عهدها وأصبحت محجوبة، إذن من محاور السخرية الأمراض الاجتماعية، كالفساد والبخل والكذب... الخ، التي تمثل جميعاً سلوكاً منحرفاً وشاذاً يرفضه المجتمع[٣].

ونجد في النثر الأندلسي في المراحل الأدبية التي تشملها دراستنا، تصدي الأدباء للممارسات المرفوضة في المجتمع، وفي ظل إخفاق المجتمعات في مواجهة مواطن الخلل فيها نجدها تلوذ بالسلاح

الوحيد لديها ومن الصعب لأحدٍ أن يجردها منه، وهو لسانها، وتضطر إلى الخروج النفسي من هذه الكوارث والمحن بالسخرية، وقد تجدها ملاذاً ومخرجاً ومتنفساً واستنكاراً، وذلك لأن؛ المأساة يمكن أن تتحول إلى ملهاة، إذ إن موقف الإنسان – مثلما نعلم– من أعباء الحياة ليس هو الذي يحدد الفرق بين المأساة والملهاة، وبين التناول الجاد والتناول الهازل، ولكن الزاوية النفسية التي ينظر منها هي التي تحدد هذا الفرق، ولذلك سوف يبقى صاحب الحق الأعزل ما دام يمتلك روح الفكاهة والسخرية، ليحقق نوعاً من السلوك الاجتماعي، حفاظاً على كيانه النفسي الاجتماعي(٤).

وقد سعى الأندلسي إلى تحقيق التوازن في تعبيره الساخر متمرداً على الواقع المؤلم الذي يعيشه، وتشكل السخرية حينئذ سلاحاً رقابياً وظيفته المحافظة على قيم المجتمع وسلامة وحدته، فليس ضرورياً أن يكون علاج هذه الممارسات الخاطئة عن طريق الزجر والموعظة، بل قد يكون للسخرية والفكاهة أثر أمضى بحسب شخصية المتلقي.

أولا: السخرية السياسية:

من البديهي أن تكون السخرية حاضرة في عالم السياسة، ولا يمكن أن تظل بعيدةً عن الحكام، وما يدور في فلكهم، تُوجَّه إليهم سراً أو جهراً، والمقصود هنا السخرية بكل ما يتصل بسياسة الدولة الخارجية والداخلية وشؤون الحكم و((**من المعروف أن السياسة تعتبر أقوى محرم جماعي إلى جانب الجنس والدين، ذلك أن السياسة تستخدم باقي هذه المحرمات في سبيل تكريسها وتقويتها مما يجعل المحرم الأكثر وطأة**))(٥).

ومن الملاحظ نجد أن كثيراً من الناس يستبعدون وجود علاقة بين السياسة والسخرية، ويرون أن السياسة مجالها الجد والحزم، أما السخرية فهي للهزل والعبث، فشتان بينهما!

وعند تتبع المدونة الساخرة على مر العصور، يتبين مشاركتها في الحياة السياسية بقوة وتفاعلها الإيجابي، أما في الأندلس فقد كانت الاضطرابات السياسية سمة بارزة في المشهد الأندلسي تاركة أثرها في نمو أدب السخرية، فقد كان الأدب الأندلسي متأثراً بالوضع السياسي، اتخذ أدباء الأندلس السخرية سلاحاً لمواجهة الفساد وسوء الأداء السياسي وضعفه.

وقد أثرت هذه الاضطرباب والثورات والحروب والفتن في الشخصية الأندلسية، فدفعتها إلى الجرأة على الحكام، وقلة الرضا عنهم والميل إلى الثورات، يصف المقري الشخصية الأندلسية قائلاً: ((**ولأهلها رياسة ووقار، لا تزال سمة العلم والملك متوارثة فيهم، إلاّ أن عامتها أكثر الناس فضولاً، وأشدهم تشغيباً، وبهم يضرب المثل ما بين أهل الأندلس في القيام على الملوك، والتشنيع على الولاة، وقلة الرضا بأمورهم**))(٦).

ولهذا نرى المؤرخين يقدمون في تأريخهم تأريخ الآداب على تأريخ الوقائع، وربما أفردوا للآداب تاريخاً قائماً بذاته يثبت ما يختص بالعلوم والمعارف في كل ملةٍ مخبراً عن نشأة الآداب بينها واتساع نطاقها وأسباب ترقيها ونتائجها الطيبة في إصلاح العموم وتحسين أخلاقهم ودفعهم إلى المشروعات والمساعي الخطيرة(٧).

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٣ – المجلد ٤٦ – تموز لسنة ٢٠٢١

وعند تصفح النثر الأندلسي نجد كتّاب الأندلس قد خاضوا وتسلحوا بسلاح السخرية نتيجة للأوضاع السياسية المضطربة، وقد أخذوا يجاهرون بإحساسهم وينتقدون الحالة السياسية للبلاد، بسبب فساد الحكام ومن يعمل لديهم من قضاة وغيرهم ولنا أنْ ندرك ((**إن السخرية السياسية هي جزء من الأدب السياسي الذي يمثل في إحدى دلالاته التزام الأديب بقضية سياسية معينة، أو بمبدأ أيًا كان وصف هذا المبدأ**))[٨].

ومن شواهد النقد السياسي الساخر في عهد المرابطين، رسالة لأبي عبد الله بن أبي الخصال (ت ٥٤٠هـ)، والغرض من الرسالة ذم الجنود الذين هُزِموا أمام الجنود بعد أن هزمهم ابن رذمير (٥٢٣هـ)، فقد سخر ابن الخصال من جند بلنسية أشد سخرية، ونعتهم بالصفات السيئة، قائلاً: ((**يَا أذلَّ من الحضيض المعبَّدِ الموطوء، ويا أعداء أنفسهم الأمارةِ بالسوء، يَا خافضي أبصارِ المؤمنين بالخَبَر الممقوتِ عنهم المشنوء، ويا من يَجبُ اجتنابهم كاجتناب البعير الجرب المهنوء، الذين لم يثبتوا فُواقَ مِكْنَةٍ لتزال، ولا تحرِّفوا إلى قتال، ولا تحيزوا إلى فئةٍ تحمي أدبارهم بإقفال، ولا خطر عذابُ الدُّنيا وعذابُ الآخرةِ لهم ببال، شاهت وجوهكم، التي عَرَّضتموها للتشويه والتقبيح، وأخرجها اجترامها عن تعريضِ التقريع إلى التّصريح**))[٩].

ويسرف ابن الخصال بالنيل منهم بالهجاء القاذع والذم الصريح، قائلاً: ((**ولا منكم دون نار الحامية انتهاء، لا يرتدُّ إليكم طَرْفُكم، وأفئدتكم هَوَاء، رفعك الله فَأَخلدتُّم إلى الأرض، وبُدِّلتم بالفِرار عن نصفِ ما أنزل الله في قتال الكّفار من الفرض ... أن فيكم ضعفاً**))[١٠].

ويستمر ابن الخصال بالتعريض بالجند، والأولى بهم أن تقطع رؤوسهم أفضل من انهزامهم، قائلاً: ((**فليتكم ذهبتم قبل ذلك في المهالكِ والمتالف، وانفردت رؤوسكم مِن السَّوالف، أو قعدتم حين كره اللهُ انبعاثكم مع أشباهِكم من الخوالف، اللائي إنما عليهُّن جرُّ الذيول، وحسن التبعل للبعول... وانقلبتم إلى إشكال النساء عن أشكالهم ... فقد أصبحتم لصقور الرُّوم خشاشاً وبغاثاً، ولذكورهم المحَّرسين بقتلاكم إناثاً، وقد طلقتكم الإسلام ثلاثاً، وأوضحت النَّار بدل الجنَّةِ لكم ميراثاً**))[١١].

وسخر ابن الخصال من جند ابن رذمير، قائلاً: ((**إلاّ أن من لقيتم من أولياءِ الشَّيطان، وعَبدةِ الصُّلبان، وقد عرفتموهم لم يُنشأوا خلقاً جديداً، ولا كانوا حجارة أو حديداً... وهل كانت تلك الشرذمة إلاّ أوباشَ المجاهل، وجِماع المناهِل، وتُبَّاع الأرذال الأسافل، وأسَارى معارك الإسلام، وبقايا الأدنياء اللِّئام؟**))[١٢].

ولم تسلم السلطة الموحدية من السخرية والانتقاد من التصرفات والمواقف التي لا يكون لها قبولٌ في المجتمع.

من شواهد ذلك رسالة كتبها أحمد بن يحيى (ت ٥٩٩هـ) نلمس فيها سخرية سياسية بطريقة مباشرة تحمل إيحاءً بالاعتراض على قرارات الخليفة الموحدي المنصور لسوء اختياره للولاة من أقربائه وبني أعمامه جاء فيها ((**إن أبا يُوسفَ المنصور قَدَّم بنيه وصِغَار إخوتِه وبني أعمامِه وذوي قرابته وُلاةً في البلاد ترشيحاً لهم وإشادةً بمكانتهم لديه وتنبيهاً لقدْرِهم**))[١٣] وأحمد بن يحيى لم يستطع السكوت، وبطريقته الخاصة الساخرة بنقد ضمني لتقديم الأمير الموحدي بني أعمامه، وقد صادف ذلك فصل الصيف شديدة

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٣ – المجلد ٤٦ – تموز لسنة ٢٠٢١

الحرارة، فعمد إلى أن يلبس ملابس المترفين في فصل الشتاء (كالغراء وثياب الملف والقبارطيّ والبرانس) وحضر بها مجلس خواص الطلبة وملتقاهم بدار الإمارة، فلما سألوه عن سبب ذلك فقال لهم: ((**إنما قَدّرتُ أنه فَصْلُ القُرّ وشِدّتهُ، وأنا منه في شهر ينير**))(١٤) وقد بدء سلوكه هذا بقوله: ((**إني رأيت المدائن فُرِّقت على الصِّبيانِ والأطفال، يَعبثُونَ ويعيثون فيها ثم يأكُلونَها ... ثم يُرْفَعُ ذلك كلُّه إلى الأصاغر إدخالاً للسِّرور عليهم وتوسيعاً في التَّرفيه لأحوالِهم وتبشيراً بِخصبِ عامِهم وتفاؤلاً لبَسْط الرِّزق فيه لهم، فيَبهجُونَ ويتمكَّن جَذَلُهم ويتفاخَرون بمقاديرِها بينَهم ويتمادَى ذلك لديهم أياماً بحسبِ كثرتِها وقِلّتِها، ثم يأتونَ عليها أكلاً وتفكُّهاً بما معها عن أصناف الطُّرف والفواكه**))(١٥).

إن هذا النص يحيلنا إلى دلالات وانتقادات ساخرة لتقديم المنصور أبناءه وأقرباءه على رأس الولايات، وقد عمد أحمد بن يحيى إلى قلب العوائد، منوهاً إلى أن حسن الاختيار للولاة يحتاج إلى من هم على قدر عالٍ من المسؤولية بغض النظر عن صلة القربى مع الخليفة أو غيرهم، وليس إلى صبيان صغار يُعْهَدُ بهم إلى إدارة البلاد فتضيع البلاد في يد الأعداء.

وفي إشارة ساخرة إلى أن توزيع إمارات الولايات إلى ولاة صغار لإرضائهم في حين يتطلب الأمر التأني في التعيين والحزم في التدبير، وقد عبر عن الولايات بالمدائن وهي كلمة تطلق في الوقت الذي تُصنع الحلويات التي يعملونها بأصناف الألوان في النيروز المعروف عندهم ينير، فالوقت الذي تُصنع فيه هذه الحلوى بالمدائن وتُوزَّع على الصبيان الصغار هو فصل الشتاء وهو الفصل الذي يستعمل فيه كثير من الملابس، ولما رأى أحمد بن يحيى أن الولايات قد وُزِّعت على أبناء المنصور وأقربائه وبني أعمامه ممن هم صغار السن في وقت صادف شدة الحر والقيظ قد وجدها فرصة للربط بين العنصرين في تهكمه وسخريته من الخليفة، ولسان حاله يقول إذا الولايات قد أصبح ولاتها من الصغار فما العيب أن ألبس الفرّاء وغيرها من ملابس الشتاء في الصيف وقد قُلِبَت العوائد، وهذه السخرية قد تؤدي دوراً في صناعة القرار السياسي داخل الدولة، مما يؤكد أهمية هذا النوع من النقد الساخر الضمني، ويعكس خطورة هذا النوع من الاحتجاج على السلطة الحاكمة.

وفي تهكم خفي غير مباشر من السلطة الحاكمة في عهد بني الأحمر نجد أن ابن المرابع الأزدي يركز على طبقة مهمشة وهي طبقة الفقراء التي تعيش ظروفاً صعبة، وهذا ما أبرزه الأزدي في مقامة العيد يتناول بالسخرية الواقع الذي تعيشه هذه الطبقة ولجوء الطبقات الفقيرة إلى الاستدانة للحصول على الأضحية، وعادة توثق المبايعات عند دكان خاصة لكتابة المواثيق لحفظ الحقوق بينهما جاء في الرسالة: ((**فقلت كم طلبك فيه، على أن تمهل الثمن حتّى أوفيه؟ ... قال تضمن بي فيه عشرين كباراً، أقبضها منك لانقضاء الحول ديناراً ديناراً... وهلم لنعقد عليك الوثاقة فانحدرت معه لدكان التوثيق، وابتدرت من السعة إلى الضيق... وأوثقني بالشهامة تحت عقد وثيق، وحملني من ركوب الدين ولحاق الشين في أوعر طريق، ثم قال لي هذا تيسك فشأنك وإياه**))(١٦).

وتصور هذه المقامة مدى معاناة الطبقة الفقيرة في حصولهم على أضحيتهم بالرغم من ضعف إمكاناتهم المادية الصعبة، فالأزدي يوجه سخرية مبطنة لإهمال الحكام لهذه الطبقة بالفقراء.

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٣ – المجلد ٤٦ – حزيران لسنة ٢٠٢١

ولم يسلم الولاة من سهام النقد، فمنهم من أخذته النشوة في الطمع، وتحقيق المكاسب الشخصية من خلال ظلم الناس واستغلالهم والحياد عن طريق الصواب، فقد كان من المنتظر حماية الناس ومصالحهم وأمنهم.

تناول ابن الخطيب هذا النوع من الولاة المفسدين فالوالي (ابن الربيب) هو عين ((**الجهل والرعونة والطلعة الملعونة والحياة المسلوب، والصبر المهزوم عند الشهوات المقلوب، والخيانة التي يعرفها الوجود، واليد التي في غير الخنا لا تجود، نار الجباية، التي تأكل في اللحظة الواحدة جبالها وخنجر الأمانة... المخل بالألقاب الخامل البيت والهمة، الكثير الذم، القليل الذمة**))[١٧].

إنّ هذه الصفات التي قد وصلت إلى حد الهجاء اللاذع، تدل على أن بعض الولاة كان يُفَوَّض إليهم أمر الناس وإدارتها والحكم في أمورها، على الرغم ما يتصف به هؤلاء الولاة من طيشٍ وجهلٍ وانعدام الحياء، وغلبة الشهوات والظلم، وخيانة الأمانة والجور في الجباية، ووضاعة الأصل في حين يمتلك الوالي صفات تناقض الصفات السابقة، فلا بد أن يتميز بالصبر والمعرفة ومجاهدة الشهوات، ورجاحة العقل، والأمانة والعدل، والسمعة الحسنة.

وأن هذه السخرية من الولاة هي نقد لمن وراءهم من الحكام فتقع عليهم مسؤولية سوء الاختيار للولاة.

لقد حضرت السخرية السياسية في النثر الأندلسي، وكانت سلاحاً وجهه الأدباء ضد الممارسات الجائرة والظلم، وتناولت رجال الدولة ممن ساعدوا الحكام في ظلمهم، وما يفعلوه من انتهاكات، ولقد كان للاضطرابات السياسية أثر كبير في توجه الأدباء نحو السخرية.

ثانيا: السخرية الدينية:

شملت السخرية بعض رجال الدين الذين اتخذوا الدين وسيلة لهم لتحقيق غاياتهم، وتركوا واجبهم ودورهم الصحيح في المجتمع، في دعوة الناس بالأمور الدينية وتعاليمها، فقد استبدلوا الدنيا بالآخرة، وظلموا الناس من خلال استغلال نفوذهم الديني وهو المؤثر في عواطف الناس.

وهذا ما دفع الكتّاب إلى السخرية للنيل منهم لانصرافهم عن الدين، والأصل أن يكونوا مثلاً أعلى للناس، وأقربهم إلى تعاليم الدين، وما يدعو إليه من خلق كريم، واستقامة وزهد ولكن البعض منهم ابتعد عن ذلك وخالف ما يدعو إليه ((**إنّ نقمة الناس على هؤلاء الفقهاء، جاءت من البون الشاسع بين حقيقتهم وبين صورة الفقيه المثالي التي تختلف عن عموم الناس من حيث العلم والحلم والوقار والتواضع في أمور الدنيا**))[١٨].

إن السخرية من رجال الدين، لرصد الممارسات والتصرفات الخاطئة التي يرتكبها رجال الدين، وتسيء إلى الدين، وقد تأتي السخرية لأسباب شخصية باعثها التنافس بين الأدباء والفقهاء الذين أصبحت لهم مكانة متميزة عند ولاة المرابطين والموحدين بشكل خاص.

ومن شواهد السخرية الدينية مقامة لأبي عبد الله بن أبي الخصال (ت ٥٤٠هـ) نجد فيها سخرية جارفة فقد تناول شخصية الخطيب منبعاً للمفارقة، ومن خلاله يلقي الضوء على ما حفلت به الحياة من عوامل الفساد والانحطاط القائمة على التلون والنفاق.

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٣ – المجلد ٤٦ – تموز لسنة ٢٠٢١

إن بطل مقامته يقف خطيباً ويحض الناس على البر والصلة، وأن تقيدوا بالسلف الصالح، وأن يبادروا الخير لكسب الحسنات قبل فوات الأوان ((**وسط المجتمعين شيخ، يحث الناس على بره، ويستثير دوافع السخاء فيهم، بلسانه العبقري، وبتذللِه تارة، ونحيبه تارة أخرى**))(١٩).

لكن يظهر في صورة أخرى وقد ارتاد إحدى الحانات كاشفاً عن شخصيته الحقيقية الماجنة ((**ويعلم الحارث بعد ذلك أن صاحبه قد ذهب وشرب في إحدى الحانات وحبس في جب، لأن صاحب الحان قد ارتهنه بدينه... وبما شرب مرتهن**))(٢٠).

وهنا يبرز مدى التناقض وازدواج الشخصية الدينية، ويتبين ما تنطوي عليه عندما تقوم على النفاق والرياء والتنكر للقيم النبيلة.

ويمكن القول أن عمل الوعاظ المنافقين المحتالين لا يكاد يختلف كثيراً عن السرقة، لأنه يجعل القناع الوعظي حيلة يستغل من خلالها الناس، ليحقق المكاسب التي يرمي إليها، وليخفي من خلال القناع الديني الزائف حقيقة مجونه وفسقه والاستهتار بالقيم الدينية والأعراف الاجتماعية، وليس وسيلة للتوجيه الديني.

ونجد في المقامة الثامنة للسرقسطي (ت ٥٣٨هـ) أن السدوسي يقف واعظاً في الناس لهوهم، وانشغالهم عن الموت، محاولاً أن ينبههم عما هم عليه من غفلة قائلاً: ((**أما آن للقُلوب القاسِيةِ أَنْ تَخْشَعَ، وبهاءِ النَدامَةِ أَنْ يَنْشَعَ، أَمَدٌ قصيرٌ، وذَهَابٌ ومَصيرٌ، ولا سَامِعٌ ولا بَصيرٌ، وشَأْنٌ خَطِيرٌ، وَرَأيٌ فَطيرٌ، وأجلٌ حالٌ، وأملٌ ضالٌ، وشُحٌّ مُطاع، وانبتاتٌ عَنْ الخَيْرِ وانقِطَاعٌ، وَهَوى مُتَّبعٌ، ومَصيفٌ ومُرْتبعٌ، وآمالٌ سائمَةٌ وعُيونٌ نائمةٌ... كأنَّك غَافِلٌ عمّا بأهْلِها تَصْنَعُ، أَلَمْ تَرَها تأخُذُ وتَمْنَعُ، وإذا أعْطَتكَ تَافِهها فإنك لا تَشْبَعُ ولا تَقْنَعُ**))(٢١).

ثم يقوم ابن السدوسي بتوجيه اللوم إلى الناس، على ما وقعوا فيه من الآثام والمعاصي، فهم لا يتورعون عن التقصير في واجباتهم.

وهنا تتم نقطة التحول من القناع الديني الزائف إلى الكدية ويخاطب الحاضرين مؤيداً كلامه بالنص الديني ((**كُلكُم إلى منزِله رَاجِعٌ، فَطَاعِمٌ أو هَاجِعٌ، يَفْتَرِشُ الحَشَايَا، ويَنتهزُ الغدايا والعَشَايا ولا يُفكِرُ في غَريبٍ سُلِبَ وَطَنَهُ، وابتُزَّ مَرحُهُ وعَطَنُه ولابنِ السَّبيل والضَيْفِ النَّزيلِ، حقٌ في الكِتَابِ والتَّنزيلِ**))(٢٢).

إن هذا التناقض الصارخ، يكشف خللاً دينياً وأخلاقياً وتربوياً يعمل على تشويش ((كل الأنساق المعيارية التي تواضعت عليها الأعراف الاجتماعية والديانات السماوية والتراكمات التاريخية لتجارب البشر))(٢٣)، لأن على الواعظ أن يكون مثالاً حياً للمجتمع لتحقق فيه القدوة والأسوة الحسنة.

إنّ إشراك السدوسي لابنه في الحيلة، ينبهنا إلى وجود إشكالية قائمة على قلب النسق التربوي السليم؛ لأن من واجبات الأب تنشئة أبنائه على حب الخير والتمسك بالقيم الأخلاقية والأعراف الاجتماعية، فقد أصبح ابنه أنموذجاً للتربية الفاسدة القائمة على استنساخ واعظ مقنع لا يقل عن أبيه في الاحتيال والخبث والكدية.

وتعد مقامة القاضي السرقسطي من أكثر المقامات الموجهة للقضاء الفاسد الذي اتخذ الرياء واستغلال المنصب وسيلتين لتحقيق غاياته الشخصية، ويكشف الحوار الذي دار بين القاضي وكل من مساعده وسجّانه، أن الكل يشتركون في التدليس والفساد وظلم الناس، فقد أرسل القاضي في طلب السجان الذي بَلَغه أنه يتهاون

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٣ – المجلد ٤٦ – تموز لسنة ٢٠٢١

في الحدود والأحكام فيشارك المجان مجونهم ويقضي عما فعلوه مقابل المال. ولكن السجّان يتعجب من تعنيف القاضي له فيقول: ((**إن الذي نصَّ من ذلك وتحصّل قد خَلَص إليك ووصَلَ على يَديْ الكاتبِ، وقد زَعَمَ أنَّهُ من الرَّاتبِ**))(٢٤).

ويشتد غضب القاضي، ويتهم الرجلين بالتواطؤ عليه في التدليس، ويتنصل مما سمع، لكن القاضي يكشف عن فساده وطمعه الشديد، ويتهمه بالطمع والجشع وتقديس المال وادعاء العلم ويوجه له هذه الاتهامات بأسلوب نقدي لاذع عندما يقول: ((**فإنك الذي لا يكفيه قليلٌ ولا كثيرٌ، ولا يَسْلَمُ من ظُلمِه خسِيسٌ ولا أثيرٌ، تُساهِمُ في التراثِ، وتُزَاحِمُ في الاحْتِراثِ، وتَسْتَمْطِرُ من صَيِّب وَجَهامٍ، وتضربُ في كل قَضيَّةٍ بِقاصِلٍ وكَهَامٍ، تَلْمعُ الدَّرْهَم، فتركَبُ الأَيْهَم، وترى الدينارَ فتقتحِمُ النَّارَ. لا تُبالي العارَ ولا تَرُدَّ المعارَ، وأنت من عُمرك على شَفَا جُرُفٍ عارٍ، وهامةُ ليلٍ أو نهارٍ، تَزعُمُ العلمَ وتَدَّعيه، ولا تفهمُه ولا تعيه، فهو عليك لا لك. وأولى لك ثم أولى لك، وكأنْ قد حاق بنا وبل مَكرُه، وعمَّنا سُخْطُه ونُكْرُه**))(٢٥).

ويتابع الكاتب كلامه عن القاضي، ويذكره بما عطّل من حدود الله وابتعد عن حقوق الناس، وأن الجميع مشتركون في هذه المظالم (القاضي والسجان والكاتب) وأن القاضي هو من ساقهم إلى هذا الفساد، وكان بالأحرى أن يكون القدوة الحسنة لهم ((**فإنها مظالِمُ العباد، من خافٍ وبادٍ وحاضرٍ وبادٍ، ليس فيها إلاّ الجَزاءُ والقَرْضُ، وإلا الحِسابُ والقرْضُ... ومرتع الظلم ويل، وقد جَار بنا ربُّك السَّبيل**))(٢٦).

وأمام هذا السيل النقدي الساخر يحاول القاضي الخروج من المأزق، مما دفعه إلى الادعاء والباطل وأنه جرب طريق الصلاح زمناً، فلم يجد فيه نفعاً ((**ولكن ربما أحلَّتِ الضرورةُ الحَرام، ووصَمَتِ الحاجَةُ الكِرَامُ، وقد تُؤكَلُ المِيْتةُ والدمُ، ومن التوبةِ الندَمُ، وإني نَزَلْتُ هذا القُطَر غريباً، فما دعَوني لبيباً ولا أريباً، حتّى لُذْتُ بالدعاوي، وعَوى مني بالباطِلِ عاوي... وقديماً تحرَّيْت فَتَعرَّيتُ، وتورَّعتُ فَجرَّعتُ، وانزويتُ فانطوَيتُ، وانقبضْتُ فانتفَضْتُ**))(٢٧).

ويحاول القاضي التخلص والهرب بما كسبه من أموال، لكن ينكشف أمره، فلا يفلح بالهرب قبل أن ينال حظه من الازدراء ((**حتّى فشا خَبرُهْ وانتَشَرَ، وكَلَحَ له العدُوُ عن نابهِ وكشَرَ، وازْدَرَوْهُ ازدراءَ الظالمِ، وحَطُّوه عن رتبةِ الظالمِ، وسَدَّدوا إليها السهامَ، وأحالوا عليه الأوهامَ، وبُلِّغَ السُّلطان خَبرَه، وبَلاَهُ وخبرهُ، ونَفاهُ على وجَههِ، وبالغَ في دَحْرِهِ ونَجْهِهِ، وبقي ضاحياً بالعراءِ، مُستتِراً بالضَّراء**))(٢٨).

لقد بلغ الفقهاء منزلة عظيمة، ولا سيما في عهدي المرابطين والموحدين ((**وانتهى بهم الحال إلى أن أصبحوا سلطة حقيقية داخل الدولة**))(٢٩)، إذ كانت ضد القضاء بالأندلس ((**أنظم الخطط عند العامة والخاصة لتعلقها بأمور الدين**))(٣٠)، وقد وُجدَ في هؤلاء من حادوا عن الطريق، وتهاونوا في تطبيق الأحكام الشرعية، وقبولهم الرشوة، والقسوة في التعامل.

يؤكد ذلك مرة أخرى مقامة لابن الخطيب (ت ٧٧٦هـ)، ويصف فيها قاضياً منافقاً، يدّعي الحكمة والنزاهة والصدق، وهو أبعد ما يكون عنها ((**فارة، وقضاءٌ وكفَّارة، وبقيَّة مما ترك آل موسى وآل هارون تحت غِفاره، بَعوضة في الأَذان، تُغْني عن الاسْتيذان، ويطرق حتّى بِهنات الإقامة والأَذان، قادر على تَلْفيق الثُّبوت، وحَمْل اليهود على نِسْيان السُّبوت يرى الحكمة خبيئة جَيْبه، ويشتغل بعيوب الناس عن عَيْبه**))(٣١).

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٣ - المجلد ٤٦ - تموز لسنة ٢٠٢١

الخاتمة:

- تناولت السخرية السياسية السلطة الحاكمة والرفض لقراراتهم السياسية من جانب تولي أولادهم الصغار للسلطة، وتعدت السخرية السياسية إلى المطالبة بالعدل والانتباه إلى طبقة الفقراء المهمشة وما يقع عليهم من ممارسات ظالمة، ولم تقف السخرية من السلطة الحاكمة بل وجهوا سهام نقدم إلى الولاة المفسدين، والتناقض بما يجب عليه أن يكون صفاتهم.
- توجهت السخرية الدينية إلى رجال الدين والفقهاء؛ لأنهم الأقرب إلى التعاليم الدينية، ولكنهم لم يطبقوا ذلك، وخالفوا ما يدعون إليه، واتضحت حقيقتهم بسبب ممارساتهم وسلوكياتهم الخاطئة، طلباً للمصالح الدنيوية، فإن تخلى بعضهم عن هذه الصفات فإن الساخر يحاول إنزالهم من مكانتهم ومنزلتهم العظيمة، حتّى لا يغتر الناس بصنعهم ويقتدوا بهم.

الهوامش:

(١) سيكولوجية الفكاهة والضحك: ٣٧-٣٨.

(٢) ينظر: الضحك "البحث في دلالة المضحك: ١٤ وما بعدها.

(٣) ينظر: فن الكوميديا: ١٣.

(٤) ينظر: الشعر الشعبي الساخر في عصور المماليك: ٧١ وما بعدها.

(٥) السخرية والسلطة بالمغرب: ٢٣٨.

(٦) نفح الطيب من غص الأندلس الرطيب: ١٤٥/١-١٥٥.

(٧) ينظر: تاريخ الآداب العربية في القرن التاسع عشر والربع الأول عن القرن العشرين: ٣.

(٨) السخرية في شعر بشار بن برد: ٦٥.

(٩) رسائل ومقامات أندلسية: ١١٣-١١٤.

(١٠) المصدر نفسه: ١١٤.

(١١) المصدر نفسه: ١١٤-١١٥.

(١٢) المصدر نفسه: ١١٦.

(١٣) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة: ٧٢٤/١.

(١٤) المصدر نفسه: ٧٤٢/١.

(١٥) المصدر نفسه: ٧٤٣/١.

(١٦) الإحاطة في أخبار غرناطة: ٣٢٥/٣.

(١٧) ريحانة الكتّاب ونجعة المنتاب: ٢٧٥/٢.

(١٨) صورة المجتمع الأندلسي في القرن الخامس للهجرة: ٩٩.

(١٩) ينظر: مخطوط ترسل الفقيه الكاتب الأسكوريال رقم ٥٣٨: ورقة ٩٠. نقلاً عن: أبو عبد الله بن أبي الخصال حياته ونثره، مصطفى محمد: ١١٧.

(٢٠) المصدر نفسه: ٩٤/٥٣٨.

(٢١) المقامات اللزومية: ١٠٥ وما بعدها.

(٢٢) المصدر نفسه: ١١٤.

(٢٣) المقامات مقاربة في التحولات والبنى والتجاوز: ٦٢.
(٢٤) المقامات اللزومية: ٣٢٣.
(٢٥) المصدر نفسه: ٣٢٥.
(٢٦) المصدر نفسه: ٣٢٤-٣٢٥.
(٢٧) المصدر نفسه: ٣٢٦-٣٢٧.
(٢٨) المصدر نفسه: ٣٣٠.
(٢٩) التربية الإسلامية في الأندلس: ٢٣.
(٣٠) نفح الطيب: ١٢٧/١.
(٣١) ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب: ٢٧٤/٢-٢٧٥.

المصادر والمراجع

أولا: المصادر والمراجع:

١- سيكولوجية الفكاهة والضحك، زكريا إبراهيم، مكتبة مصر، د.ط، د.ت.

٢- الضحك "البحث في دلالة المضحك"، هنري برجسون، ترجمة سامي الدروبي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٧.

٣- فن الكوميديا، محمد عناني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، د.ط، ٢٠٠٢.

٤- الشعر الشعبي الساخر في عصور الممالك، د. محمد رجب النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع القاهرة، ٢٠١٥.

٥- السخرية والسلطة بالمغرب من المأسسة إلى التجريم، محمد شقير، الدار البيضاء، د.ط، ٢٠٠٩

٦- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المقري، تح: د. إحسان عباس، دار صادر بيروت، لبنان، ١٩٦٨.

٧- تاريخ الآداب العربية في القرن التاسع عشر والربع الأول عن القرن العشرين، رزق الله بن يوسف، دار المشرق، بيروت، ط٣، د.ت.

٨- رسائل ومقامات أندلسية، تحقيق فوزي عيسى، منشأة المعارف، الإسكندرية، د.ط، د.ت.

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٣ - المجلد ٤٦ - تموز لسنة ٢٠٢١

٩- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، محمد بن عبد الملك المراكشي، تحقيق إحسان عبـــاس، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط١، ٢٠١٢.

١٠- الإِحاطَة في أَخْبار غرنَاطَة، لسان الدين بن الخطيب، تح: د. محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي للطبع والنشر والتوزيع، مصر، ط١، ١٩٧٧.

١١- ريحانة الكتّاب ونجعة المنتاب، د. محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي للطبع والنشر والتوزيع، مصر، ط١، ١٩٨٠.

١٢- صورة المجتمع الأندلسي في القرن الخامس للهجرة، عمر إبراهيم توفيق، دار غيـــداء، عمـــان، ط١، ٢٠١١.

١٣- المَقامات اللُّزومية، للسرقسطي، تح: د. بدر أحمد ضيف، تقديم د. محمد مصطفى، الهيئـــة المصـــرية العامة للكتاب، فرع الإسكندرية، ١٩٨٢.

١٤- المقامات مقاربة في التحولات والبنى والتجاوز، يوسف إسماعيل، اتحاد الكتـــاب العـــرب، دمشـــق، ٢٠٠٧.

١٥- التربية الإسلامية في الأندلس، خوليان ريبيرا، ترجمة د. الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، مصـــر، ط٢، ١٩٩٤.

ثانياً: الرسائل والأطاريح الجامعية:

١- أبو عبد الله بن أبي الخصال حياته ونثره، مصطفى محمد، كلية الآداب، الجامعة الأردنيـــة، ماجســـتير، ١٩٨٨.

٢- السخرية في شعر بشار بن برد، خير الدين قاسم محمد، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة الموصل، ٢٠٠٥.

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٣ - المجلد ٤٦ - تموز لسنة ٢٠٢١